18

رحلة الأمراء المصريين إلى روسيا

ساهمت الاتصالات التي كانت قائمة بين أفراد أسرة رومانوف الحاكمة في روسيا ، وأسرة محمد علي في مصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين في تطوير الحوار الثقافي – الحضاري بين مصر وروسيا . وقد شهدت هذه الفترة حالة من تطبيع العلاقات بين البلدين مما ساهم بدوره ، في تطوير العلاقات السياسية والثقافية والتعاون الإقتصادي والتجاري ، وكان التقارب بين العائلتين المالكتين سبباً في توطيد العلاقات الثنائية بين الدولتين .

عدم تدخل روسيا في الشأن الداخلي لمصر لفت أنظار الحكام المصريين ، الذين كانوا دائما ما يعولون في ظل الضغط الآ نجليزى والفرنسي في أول الأمر ، ثم الضغط الإ نجليزي فقط فيما بعد ، على المساعدة والمعونة من القناصل الروس المتواجدين في مصر . أدرك الدبلوماسيون الروس ضرورة إقامة علاقات جيدة مع القيادة المصرية ، واستفادوا من الطابع المزدوج للسلطة في هذه البلاد حيث كانت مصر تحتفظ بلقب ولاية عثمانية كبرى اسميا فقط ، ولكنها مع بداية عام ١٨٨٢ تحولت بالفعل إلى مستعمرة بريطانية . سعى الدبلوماسيون الروس إلى إقامة علاقات وثيقة مع الخديوي والأمراء المصريين . ويبرز هنا الدور الكبير الذي لعبه الدبلوماسي الروسي والقنصل العام لروسيا في مصر ألكسندر إيفانوفيتش كوياندير[٥٨١] ، الذي شغل هذا المنصب في الفترة ما بين عامي ١٨٨٧-١٩٠٢، وهي أطول فترة يمكثها مسؤول دبلوماسي روسي من بين باقي القناصل الروس . وقد شهد عهده

٥٨١ عن مقالة : Египетские принцы в России ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady ، كوياندير إيفانوفيتش ألكسندر (١٨٤٧-١٩١٠)، مسئول دبلوماسي، وشغل منصب القنصل العام في مصر في الفترة من (١٨٨٧- ١٩٠٢) ، كان مستشار الملكة ، من كتيبة فنلندية ، ينحدر منها كذلك س.ب كوياندير ، والذي إنضم إلى الخدمة العسكرية في ١٧٥٨ في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول١٩٠٢ ، صدر مرسوم من مجلس الشيوخ الحكومي بتنصيب كوياندير سفير فوق العادة ووزير مفوض في البرتغال . أنظر : أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، إدارة شئون الأفراد والأملاك ١٩٠٢ ، حافظة رقم ٢١٧٤٩ ، وثيقة رقم ٧٠ ، السطور : ١ ، ١٣.

إزدهاراً ملحوظاً للعلاقات بين مصر وروسيا في مجال السياسة والثقافة. ولهذا تم تكريم أ.إ كوياندير بعد انتهاء فترة عمله الدبلوماسي في مصر بمنحه، أعلى الأوسمة، وحظى باستقبال مهيب من قبل عباس حلمي الثاني[٥٨٢] فقد كان هو المنظم لرحلة الخديوي عباس إلى أراضي الإمبراطورية الروسية آنذاك.

الخديوى توفيق

في عام ١٨٨٨ قام أبناء الخديوي توفيق الأمير عباس بك ولي العرش ذو الخامسة عشرة ربيعا، وشقيقه الأمير محمد علي الذي كان يبلغ ثلاثة عشرة عاماً بزيارة روسيا. وصحب الأميرين طونين باشا رئيس المراسم بقصر الخديوي، ومدير المكتب التركي للخديوي محمد شكري بيه و نجيب أفندي المسؤول عن تربية الأمراء ومعلم اللغة العربية بالإضافة إلى عدد كبير من حاشية الملك[٥٨٣]. وتوجه الأمراء في رحلة إلى ألمانيا وروسيا وذلك «بعد إذن وتصريح من الخديوي والسلطان العثماني، الذي تم طلبه وفقا للإتيكيت الشرقى»[٥٨٤].

تؤكد المصادر الدبلوماسية على أن الشقيقين عباس ومحمد، توجها لزيارة روسيا بناءً على رغبة والدهما الخديوي توفيق. وأشار القنصل العام أ.إ كوياندير[٥٨٥] إلى وجود رغبة مُلحة لحكام البلدين في توطيد العلاقات بين الحكومتين من خلال الاستفادة بتلك العلاقات الشخصية الجيدة.

وُلد ولي العهد المصري الصغير في الرابع عشر من يوليو ١٨٧٤ بالإسكندرية، وتربى عباس (الذي شغل منصب خديوي مصر في الفترة فيما بين عامي ١٨٩٢-١٩١٤) حتى عام ١٨٨٢ في حرملك والدته أمينة. وقد كانت اللغتان التركية والإنجليزية أول ما تعلمه من اللغات ثم بدأ التعامل باللغة العربية في عام ١٨٨٢ مع شقيقه محمد علي ومع ٥٠٠ من الأقران من العائلات البارزة في النزل التابع لقصر عابدين. استكمل عباس تعليمه في لوزان

٥٨٢ أنظر: جينادى جورياتشكين «الإسكندرية الروسية، مصير المهاجرين الروس في مصر» موسكو، ٢٠١٠ صـ ٢٦٩- ٢٧٠.

٥٨٣ أنظر: «الكتاب الحكومي» سانت بطرسبورج، ١٢- ٨ - ١٨٨٨.

٥٨٤ أنظر: مجلة «موسكوفسكي فيدومستي» ١٥- ٨ - ١٨٨٨.

٥٨٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة رقم ١١٨٢٠، وثيقة رقم ١٩٩، السطر رقم ١١١.

بناءً على أوامر والده الخديوي توفيق باشا . وفي عام ١٨٨٧ التحق الأمير ذو الثالثة عشر ربيعاً بأكاديمية ماري- تريزفي فيينا ، وسرعان ما انضم إليه شقيقه محمد علي . وفي هذه المؤسسة التعليمية الراقية «حصل الإثنان على ثقافة عسكرية ، ومهارات القيادة ، واحترام القانون» . ومن هناك توجه الشقيقان إلى زيارة روسيا .

بدأت رحلات ولي العهد الصغير خارج البلاد ، قبل بلوغه سن العاشرة . وأشار عباس باشا في مذكراته إلى أنه زار إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا وروسيا وأستراليا والنرويج وعدد من الدول الأوروبية ليس من أجل الرفاهية والتسلية ، بل للتعرف على الإقتصاد الأوروبي وثقافة وحضارة تلك الشعوب[٥٨٦].

تجدر الإشارة إلى أن الزيارة الرسمية لأبناء الخديوي إلى الإمبراطورية الروسية ، قد تم الإعداد لها قبل وقت طويل من القيام بها . وتزامن ذلك مع ظهور أ.إ كوياندير بالقاهرة في عام ١٨٨٧ . فهو يعد صاحب فكرة تلك الزيارة ، وكذلك صاحب مبادرة الزيارة الموازية لأعضاء الأسرة الحاكمة للإمبراطورية الروسية إلى القاهرة ، في إطار توطيد العلاقات بين الأسر الحاكمة في روسيا ومصر[٥٨٧] .

يشير الخطاب الذي أرسله وزير الخارجية الروسي ن.ك.جريس[٥٨٨] إلى أ.إ كوياندر إلى أهمية الإعداد لتلك الزيارة . وقد جاء في الخطاب : «حسب المعلومات التي بلغتني من الوزارة، فأنتم تعلمون جيدًا إلى أي مدي ينظر جلالة الإمبراطور بعين الرضا ، لزيارة أبناء الخديوي سانت بطرسبورج وبعض المدن الروسية . وقد أمر جلالته باتخاذ كافة الإجراءات لكي تترك تلك الزيارة إنطباعاً إيجابيا لدى عباس باشا ومحمد علي باشا ، اللذان يتواجدان حالياً في روسيا»[٥٨٩] .

---

٥٨٦ Memoires d’un souverain par Abbas Helmi II, Khedive d’Egypte (١٨٩٢–١٩١٤). Le Caire, 1996. P. 47-50 .

٥٨٧ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١\٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٠٤ «زيارة أفراد العائلة المالكة لمصر» ١٨٨٨-١٨٩٠ ، السطور من ٢١٧- ٢٩٨ .

٥٨٨ جريس نيكولاي كارلوفيتش (١٨٢٠- ١٨٩٥) ، ترأس الخارجية الروسية في الفترة من ١٨٨٨- ١٨٩٥ . ولد في عام ١٨٢٠ في محافظة فولينسكي . ينحدر من أسرة نمساوية – سويسرية – دانماركية . ١٨٩٨ تم تعينه في الإدارة الأسيوية بالخارجية الروسية . أصبح القنصل العام بمصر في ٢٥ أغسطس / آب ١٨٥٦ ، كما أنه كان من أنصار فكرة مشاركة روسيا في بناء قناة السويس . أصبح القنصل العام في مولدافيا منذ أبريل نيسان ١٨٥٨ . أصبح سفير غير عادي ووزير مفوض في طهران منذ أغسطس / آب ١٨٦٣ ، ثم سفيراً في سويسرا منذ ١٨٥٩ . تقلد العديد من المناصب داخل وزارة الخارجية الروسية ، أنظر مقتطفات من تاريخ وزارة الخارجية الروسية ، مجلد٣ ، موسكو ٢٠٠٢ صـ ١٣٤- ١٥٥ .

٥٨٩ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١\٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٠٤ (١٨٩٠) السطر ٢٩٧ .

تم إعداد عربة قطار خاصة لاجتياز الأمراء الحدود الروسية – الألمانية . وكان في استقبال الضيوف عند نزولهم في محطة وارسو : الجنرال كوزمين حكمدار المدينة ، والعقيد كليجيلست رئيس قائد الشرطة المعاون ، والعقيد جرينفيتش مدير القصور في وارسو ، وشخصيات رسمية أخرى . تحدث الأمراء معهم بالفرنسية بعض الوقت ، ثم أخذوا يتجولون مع الوفد المرافق لهم عبر غرف القصر ، ثم توجهوا إلى قصر لازينكوفسك المخصص لهم . وكانت تصطف هناك على طول الطريق المؤدي إلى القصر جموع غفيرة من العامة الذين رحبوا ترحاباً عميقاً بالأمراء عند وصولهم إلى وارسو» [٥٩٠] . وقد راقت العاصمة البولندية كثيراً للأمراء المصريين ، لدرجة أنهم قرروا أن يبقوا بها ثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد .

وصل أبناء الحاكم المصري إلى العاصمة الروسية ، في الثالث من شهر أغسطس لعام ١٨٨٨ ، و قد أقاموا بالطابق العلوي بالجناح الأوسط من مبنى القصر الشتوي «الإرميتاج» بصحبة الشخصيات المرافقة لهم . وفي مساء ذلك اليوم استقبلهم القيصر ألكسندر الثالث في قصر جاتشينسك ، حيث كان يقيم هناك للقيام بعمل بعض المناورات العسكرية. وشاهدوا مسرحية « الزواج» لجوجول ، التي قدمها فنانو مسرح قصر جاتشينسك . ثم قام الضيوف بالتعرف على أعضاء الأسرة الإمبراطورية ، وكذلك تعرفوا على الملك اليوناني الذي كان يحل ضيفا على سانت بطرسبورج . وفي أثناء العرض المسرحي كان يوجد بوفيه على الجزء العلوى للسلم الرئيس يضم كافة أنواع المشروبات والحلويات وزجاجات الشامبانيا . وبعد الانتهاء من المسرحية كان في انتظارهم عشاء فاخر في القاعة الرئيسية عزفت خلاله الفرقة النحاسية التابعة لكورال القصر لحناً بديعاً. وبعد الانتهاء من تناول العشاء إستقل الضيوف قطارا خاصا لنقلهم إلى سانت بطرسبورج واستقله أيضا أبناء الخديوى المصري للذهاب إلى مقر إقامتهم [٥٩١] . ونظراً لأن أبناء الخديوي المصري قد درسوا في الأكاديمية العسكرية في فيينا ، لم يقتصر برنامج الرحلة على زيارة أماكن المناورات الحربية فحسب ، وإنما تضمن أيضاً زيارة المواقع العسكرية المختلفة . وفي اليوم التالي في الرابع من شهر أغسطس نال الضيوف المصريين قسطا من الراحة . بدأ البرنامج الرسمي لزيارتهم في العاصمة في الخامس من أغسطس بزيارة منزل بطرس الأول ، وترسانة القديس بيتر ، والقديس بافل . ثم توجه الضيفان لزيارة مصانع بيرد ، وكان في استقبالهم مدير

٥٩٠ أنظر : مجلة « موسكوفسكي فيدومستي « لتاريخ ١٥- ٨ – ١٨٨٨ .
٥٩١ الكتاب الحكومي ، ٥ – ٨ – ١٨٨٨ ، العدد الجديد ٥ – ٨ - ١٨٨٨ .

مركز «دوبوي» لبناء السفن . كما شاهد الأمراء على منصة بناء السفن ، عملية بناء البارجة الحربية «الإمبراطور نيكولاي الأول» وزاروا باقي الورش الأخرى بالترسانة [٥٩٢] .

في الثامن من أغسطس قام الأمراء المصريون بجولة في كرونشتاد ، حيث شاهدوا بحضور القيادة العليا المحلية . حصن قنسطنطين ،واطلعوا على بطاريات مع نماذج جديدة لأسلحة الحصون المنصوبة على المنصات . بدأت الجولة من محطة بريستريلتشنايا وقد راق للضيوف كثيراً تشغيل ألغام « وايت هيد» ، وللتعرف عليها عن قرب تم تفجير اثنين من تلك الإلغام أحدهما من غواصة ، والآخر من جزء السفينة فوق سطح الماء» [٥٩٣] .

في المساء استقبل الإمبراطور الضيوف في قصر روبشا . وفي اليوم التالي ذهب الجميع، لمشاهدة المناورات ، لكن هذه المرة بالقرب من تسارسكوي سيلو. وبعد المناورات تناولوا وجبة الغداء في الهواء الطلق ؛ بمشاركة قادة وضباط الوحدات وضباط الأركان وممثلي العائلة المالكة . وفي الثالث عشر من أغسطس قاموا بزيارات وداع ، وتناول الضيوف طعام الغداء في تسارسكوي سيلو ، لدى الأمير العظيم فلاديمير ألكسندروفيتش [٥٩٤] .

قبل مغادرة الوفد المصري مدينة سانت بطرسبورج ، وقع حدث هام علمت به في العاشر من سبتمبر البعثة الروسية بالقاهرة من أ.ن شيجلوف رئيس إدارة آسيا بوزارة الخارجية الروسية : «تفضُل جلالة الإمبراطور في الحادي عشر من أغسطس بعمل حفل تكريم لأبناء الخديوي المصري ، حيث منح عباس باشا وسام القديس ستانيسلاف من الطبقة الأولى ، ومنح محمد علي وسام القديس ستانيسلاف من الطبقة الثانية مع النجمة وتم تكريم باقي الشخصيات المرافقة لهم بالوفد مثل طونين باشا الذي مُنح وسام القديسة آنّا من الطبقة الثانية ، كما منح محمد شكري بيه وسام القديسة آنا من الطبقة الثالثة وتم تكريم نجيب أفندي بمنحه وسام القديس ستانيسلاف من الطبقة الثالثة» [٥٩٥] .

بعد عام من تلك الزيارة كان لوالد الأميرين الخديوي توفيق رد فعل مماثل ، حيث قام بمنح الأوسمة المصرية للمسئولين الروس بما فيهم الدبلوماسيين الذين كانوا في استقبال أبنائه لدى وصولهما إلى الإمبراطورية الروسية [٥٩٦] .

---

٥٩٢ Journal de St. Petersbourg, 6-7.8.1888

٥٩٣ الكتاب الحكومي ، ١٢- ٨- ١٨٨٨ .

٥٩٤ Journal de St. Petersbourg, 9, 11, 12, 15.8.1888

٥٩٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٩٩ (١٨٨٨- ١٨٨٩) . «Departement asiatique»، السطر ١١١ .

٥٩٦ أنظر المرجع السابق .

تجدر الإشارة إلى أنه في منتصف عام ١٨٩٠ قال الخديوي توفيق في كلمته التي ألقاها عند استقباله المبعوث الروسي أ.إ كوياندير قبيل وصول ولي العرش نيكولاي ألكسندروفيتش إلى وادي النيل : «لن يغيب عن ذاكرتي مدى الرعاية التي أولاها جلالة الإمبراطور لأبنائي ، وحسن استقباله لهم في روسيا . ومن جانبي أتمنى أن أستقبل وريث عرش روسيا بالصورة اللائقة بشرف زيارته» [٥٩٧] .

ترك أبناء الخديوي وخاصة الأمير الأكبر انطباعاً جيداً لدى الإمبراطورية الروسية حيث كتبت صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» إن كل من تحدث مع الأمراء أو كان قريبا منهم كان يزداد إعجاباً بعقل عباس بك المستنير وتطلعه للمعرفة . فقد كان الأمير يرغب في فحص كل شئ هام وشيق يقع تحت عينيه أثناء الرحلة . ولهذا فقد طالت مدة بقائه في وارسو لثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد . وقد قام الأمراء بزيارة الأماكن المهمة في سانت بطرسبورج وضواحيها وحضرا العديد من المناورات الضخمة وسباقات الخيل والعروض العسكرية ..إلخ وفي هيئة الأركان الرئيسة أطلعوهم على مجموعة من أهم الخرائط في أوروبا . و يحب الأمراء أيضا جميع أنواع الألعاب الرياضية ، وخاصة ركوب الخيل . وكانوا يتحدثون ثلاث لغات أوروبية بطلاقة مع المحيطين بهم . وفي اليوم الثالث كانوا يتابعون بشغف هبوط أحد المناطيد العسكرية ، الذي هبط بالقرب من جاتشينا ، وكانوا يرغبون في التعرف على تركيب المنطاد وعمل طاقم الطيران» [٥٩٨] .

وصل أبناء الخديوي موسكو مع الشخصيات المرافقة والخدم ، في الخامس عشر من أغسطس بالقطار السريع . وكان في استقبالهم بمحطة القطار عند المدخل الملكي اللواء يوركوفسكي رئيس الشرطة في موسكو ، الذي قام بتوصيل الضيوف إلى قصر بوتيشني [٥٩٩] بالكرملين في عربة مكشوفة ، وقد ظل الأمراء يقيمون بهذا القصر طوال مدة بقائهم في موسكو . وبعد تناول الإفطار توجه الشقيقان لزيارة قائد القوات العسكرية الروسية أ.إ بريفرن ومحافظ موسكو الأمير ف.م.جوليتسين . ثم ذهبا لمشاهدة سباق الخيل بموسكو في ساحة خودينسك وجلسا في لوج الجناح الملكي لمشاهدة تلك المسابقات . ثم

٥٩٧ أنظر المرجع السابق ، السطر ٢٠٠ .

٥٩٨ أنظر : صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» ، ١٥- ٨- ١٨٨٨ .

٥٩٩ يوجد قصر باتيشني بالقرب من حائط الكرملن في الجهة الغربية بين برجي كومندانتسكي وتروتسكي . تم بناء هذا القصر في عام ١٦٥١ على اعتباره محل إقامة البايار ميلوسلافسكي – القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش .

عاد الشقيقان إلى قصر بوتيشني في الثامنة، ثم توجها بعد الغذاء إلى حديقة الإرميتاج، ولكن نظراً لوعكة صحية ألمت بالشقيق الأكبر، لم يتسن لهما في السادس عشر من أغسطس مشاهدة المعالم المهمة بموسكو [٦٠٠]؛ لذلك عوض الأمراء في اليومين الأخيرين من إقامتهما بموسكو مافاتهما وزيادة.

في يوم الأربعاء الموافق السابع عشر من أغسطس توجه الأميران لزيارة غرفة السلاح حيث شاهدا الكنوز التي تحويها تلك الغرفة باهتمام بالغ. وبعد إقامة قصيرة في مبنى المانيج بموسكو تجولا في الكرملين، في مركبة مكشوفة وكان يغمرهما إعجاب شديد بالمظهر الخارجي لكافة كنائسه، وجرس إيفان الأكبر وجرس القيصر ومدفعه. ثم توجه الأمراء لزيارة جراف أ.ف أورلوف دافيدوف الذي كان ذا صلة وثيقة بتنظيم معرض نيجني نوفجورد والذي كان يرغب الأميران في التوجه إليه بعد جولتهما بموسكو. ثم توجها بعد ذلك إلى ليفورتوفا لزيارة أقرانهم تلاميذ الفرقة الأولى، في المدرسة العسكرية، حيث كانا يتحرقان شوقاً في انتظار لرؤية ما أعده هؤلاء الطلاب لضيوفهم.

توجه الوفد المصري في الخامسة مساءً في ثلاث مركبات مكشوفة، تجرها ثلاثة خيول إلى جبال فارووبيف. ومنه كما جاء في صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» توجه ضيوف الشرف الأجانب إلى قصر ألكسندروفسكي في حديقة نيسكوشني، ثم عادوا مرة ثانية إلى قصر باتيشني عبر جسر القرم وشوارع زوبوفسكي، وبريتشيستينسكي، ونيكيتسكي، وتفيرسكي، ثم إلى تفيرسكي مرة أخرى لمشاهدة موسكو بشكل أفضل» [٦٠١].

في العاشرة من مساء الخميس، غادر أبناء الخديوي المصري موسكو في قطار سريع إلى نيجني نوفجورد. وقبل مغادرتهما لموسكو واصلا زيارتهما للتعرف على معالم العاصمة الروسية القديمة، حيث زارا حديقة وقصر بيتروفسكي. وقبل المغادرة توجه الأمراء مرة ثانية إلى مكانهما المفضل، وهو ساحة سباق الخيل في موسكو بحضور أكثرمن ٢٠٠ مشاهد. ورافق الامراء إلى هناك محافظ موسكو الأمير ف.م جوليتسين [٦٠٢].

٦٠٠ أنظر: صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي»، ١٥- ٨- ١٨٨٨.
٦٠١ أنظر المرجع السابق، ١٨- ٨- ١٨٨٨.
٦٠٢ أنظر المرجع السابق، ١٩- ٨- ١٨٨٨.

نشير كذلك إلى أن الصحافة في موسكو مثلها مثل باقي الصحف الروسية، قد اهتمت بزيارة الأميرين المصريين لروسيا، وكذلك بالوضع في وادي النيل. وجاء في صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» في العمود الخاص بالأخبار الأجنبية: «إن فيضان نهر النيل الآن أقل من المعتاد. وإن ارتفاع منسوب المياه في أسوان قد وصل إلى عشرين بوصة، أي أن المنسوب يعد أقل من المتوسط الذي يناسب المحاصيل الزراعية. وبالتالي فإن الوضع في مصر في ظل وجود هذا العجز في المياه سيكون خطيراً، وخاصة أن فقدان المياه يحدث بشكل مفاجئ كما هو ملاحظ الآن في وادي حلفا. ولا نبالغ أو نقلل من حجم الخطر عندما نقول إن محصول الذرة هذا العام قد أصابه ضرر جسيم، ولن يزرع قمح في مصر العليا في العام القادم، أما المحاصيل الزراعية الأخرى فيمكن زراعتها بتكلفة باهظه جداً» [٦٠٣].

أمضى الوفد المصري عدة أيام في نيجني نوفجورد. وكان الهدف الأساسي من زيارة تلك المدينة، هو مشاهدة معرض نيجنى نوفجورد، الذي أفتتح منذ فتره بعيدة على نهر الفولجا، ولم يكتف بخطف أنظار التجار في روسيا فحسب، ولكن لفت إليه الآنظار من الدول الأخرى، وكذلك دول الشرق. ومن الجدير بالذكر، أن المصريين قد بدءوا المشاركة في هذا المعرض منذ تسعينيات القرن التاسع عشر. ومن المرجح جدا أن الفضل في ذلك يرجع إلى الأميرين عباس ومحمد علي وأعضاء الوفد المصري، فربما أنهما قد حصلا من والدهما على تكليف بتقييم إمكانية مشاركة التجار المصريين، في العمليات التجارية التي كانت تتم على نهر الفولجا. وفي الرابع والعشرين من أغسطس، غادر المصريون على متن سفينة «نياجارا» متوجهين إلى أسفل نهر الفولجا حتى سمارا، ومنها انتقلوا بالقطار إلى كييف [٦٠٤].

كان من الطبيعي ألا يزور ولي العرش المصري وشقيقه والوفد المرافق لهما كييف، دون المرور على قازان لزيارة الأماكن الأثرية الموجودة بها، والتعرف على نمط الحياة في أكبر المدن الروسية الإسلامية، التي تعد واحدة من مراكز التطور الثقافي للإمبراطورية الروسية.

٦٠٣ أنظر: «موسكوفسكي نوفستي – أنباء موسكو»، ٢١- ٨- ١٨٨٨، وهذا مجرد مثل واحد على اهتمامات الصحافة الروسية.

٦٠٤ أنظر: «أنباء محافظة نيجنى نوفجورد»، ٢٤- ٨ - ١٨٨٨.

وصل الأميران كييف في الخامس والعشرين من أغسطس عبر القطار السريع . وأقام أعضاء الوفد المصري في غرف فخمة بفندق « جراند أوتيل» . وقضى الضيوف في كييف ليلة واحدة وغادروا المدينة في السادس والعشرين من نفس الشهر عبر القطار المسائي ، ومع ذلك تمكن الأمراء من مشاهدة المدينة، حيث ذهبوا إلى كنيسة أندريفسكي وشاهدوا عبر شرفاتها المناظر الخلابة لبادول وزادني بروفيا . ثم عرجوا على بوابات نيكولسكي القريبة من حديقة المدينة ، ومروا كذلك على شارع ألكسندروفسكي كييف وزاروا بيتشيرسك ؛ ليشاهدوا من بعيد غار كييف – بيتشيرسكي . وفي المساء سافر الضيوف بالقطار إلى لفوف ومنها عادوا إلى لوزان [٦٠٥] .

هكذا قد ساهمت رحلة الأميران المصريين الشبان إلى روسيا ، في وضع حجر الأساس لإتصالات مستمرة بين أفراد أسرة رومانوف وأسرة محمد علي الحاكمتين وقد إستغل الجانبان تلك الاتصالات لتحقيق مصالح سياسية . فقد كان للاستقبال الباهر الذي حظيَ به ولي العرش المصري وشقيقه في سانت بطرسبورج والمدن الروسية الأخرى وتكريمهما وتكريم أعضاء الوفد المرافق لهما بالغ الأثر في فتح الآفاق لتوطيد العلاقات الثنائية بين البلدين على أعلى مستوى . علاوة على ذلك ، أبلغ الشقيقان عباس ومحمد علي القيصر رغبة والدهما الخديوي توفيق في استقبال العديد من الضيوف الروس رفيعي المستوى بالقاهرة إلى القيصر الروسي . وقد تحققت تلك الرغبة بالفعل ، حيث لم تمضِ أسابيع قليلة إلا وقد جاء إلى مصر وفد رفيع المستوى من الضيوف الروس ؛ رداً على الزيارة التي كان قد أجراها الوفد المصري .

يدور الحديث عن زياره متزامنة تقريبا لزيارة الأمراء المصريين إلى روسيا قام بها الأمير العظيم سيرجي ألكسندروفيتش والأميرة العظيمه يليزافيتا فيدروفنا والأمير العظيم بافل ألكسندروفيتش لمصر في الفترة من أكتوبر – نوفمبر من عام ١٨٨٨ [٦٠٦] . وما نشرته صحافتنا آنذاك ، يشير إلى أن الأمراء الثلاثة سبق وأن تعرفوا على الأمراء المصريين في أغسطس أثناء زيارتهم لمدينة سانت بطرسبورج ، ومن المرجح أن يكون سيرجي وبافل ألكسندروفيتش ويليزافيتا فيدروفنا قد أبلغوهم آنذاك عن زيارتهم المرتقبة إلى وادى النيل .

٦٠٥ أنظر : مجلة « كييفليانين» ٢٦ ، ٢٨- ٨ ــ ١٨٨٨ ، أنظر أيضاً « كيفسكوي سلوفا» ٢٦ ، ٢٧- ٨ - ١٨٨٨ .

٦٠٦ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٠٤ ، السطور ٢١٧- ٢٩٨ .

أما عن كيفية استقبال أفراد عائلة رومانوف في القاهرة ، فيمكن التعرف على هذا الأمر من خلال كلمات الخديوي توفيق نفسه ، والتي أدلى بها للممثل الدبلوماسي الروسي: «إنني في منتهى السعادة وأرغب في استقبال رحالة أغسطس كضيوفي الشخصيين الأعزاء» [٦٠٧] . فيما تم تكريم ثلاثة وثلاثين مصرياً ومنحهم الأوسمة الروسية بداية من الوزير الرئيس حتى قائد يخت «فايزرباني» ، وذلك نظير الاستقبال الباهر للأمراء الثلاثة» [٦٠٨]

بعد مرور أسابيع قليلة وصل القاهرة الأمير العظيم بيتر نيكولايفيتش مع زوجته الأميرة ميليتسيا نيكولايفنا في نوفمبر . ونظرا للاستقبال الباهر ، فقد تم تكريم سبعة عشر مصرياً بداية من الأمير حسين باشا (الذي مُنح الصليب الكبير للقديسة آنّا) حتى حارس القنصلية الروسية (منح الميدالية الفضية وبها وشاح ستانيسلاف ليعلقها على صدره) [٦٠٩] .

كما زار وادي النيل كل من الأميران ألكسندر وسيرجي نيكولايفتش أثناء رحلتهما حول العالم في عام ١٨٩٠ [٦١٠] . كما زار مصر الأمير قنسطنطين بيتروفيتش أولدنبورجسكي مع زوجته خلال الفترة من ديسمبر ١٩٠١ إلى يناير ١٩٠٢ وقضيا فصل الشتاء في فندق «الجزيرة بالاس» الذي كان قصراً خاصاً بالخديو في الضواحي و تحول إلى فندق . وبعد أسبوع حضر إلى القاهرة الأمير العظيم بوريس فلاديميروفيتش ، وأقام في فندق «شبرد» . وحسب أ.إ كوياندير كان الخديوي عباس حلمي الثاني يبذل قصارى جهده وهو يستقبل الضيوف الأمراء أن يكون لطيفاً وودوداً معهم حيث إنه حتى الآن يتذكر بسعادة غامرة ذلك الاستقبال الباهر الذي حظى به من قبل العائلة المالكة الروسية عام ١٨٨٨ [٦١١] .

في مطلع القرن العشرين ، أصبح أفراد الأسرة الحاكمة في مصر يتوافدون على الإمبراطورية الروسية . ففي عام ١٩٠٠ وصل الخديوي عباس حلمي الثاني إلى بيسارابيا متخفياً ، ومنها توجه إلى الأوديسا . وكان الإعداد لزيارة الخديوي قد تم في مطلع أغسطس

٦٠٧ أنظر المرجع السابق ، السطر ٦٤ .
٦٠٨ أنظر المرجع السابق ، السطر ٢١٧ .
٦٠٩ أنظر المرجع السابق ، السطر ١٣٦-١٣٧ .
٦١٠ أنظر : رادي.ج.ي «٢٣٠٠ ميل على يخت تامارا» رحلة جلالة الأمراء ألكسندر وسيرجي نيكولايفيتش في الفترة من عام ١٨٩٠-١٨٩١، مجلد١، سانت بطرسبورج ، ١٨٩٢ .
٦١١ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة ١\١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٥ ، السطر ١٩٦ .

الخديوي عباس حلمي الثاني

من نفس العام بطريقة سرية للغاية، حتى أن المبعوث أ.إ كوياندير علم بها عن طريق الصدفة أثناء قراءة صحيفة «فيدومستي سانت بطرسبورج».

بعد لقاء رسمي خاص مع الخديوي عباس حلمي، كتب الدبلوماسي كوياندير إلى وزير خارجيته ف.ن لامزدورف: «إن عباس باشا قد أسهب كثيراً في وصف إنطباعاته عن رحلته إلى بيسارابيا والأوديسا، وقال إنه كان يجد المجاملة والاهتمام من جانب سلطات الإمبراطورية في كل مكان، واعتبر أنه من الواجب عليه إرسال برقية إلى عظمة الإمبراطور لدى مغادرته لأراضي الإمبراطورية الروسية يعرب فيها عن خالص امتنانه وشكره العميق، ثم جاء الرد الكريم من الإمبراطور ليلمس وجدانه»[٦١٢]. ولم يكتف القيصر بالرد على برقية الخديوي المصري، بل قام بمنحه أعظم وسام روسي. وقد كتب أ.إ كوياندير في تقرير بتاريخ الأول من يونيو لعام ١٩٠٢: «لقد شَرفتُ في اليوم الثالث بتسليمه في استقبال رسمي مهيب وسام «القديس ألكسندر نيفسكي» «المرصع بالماس»»[٦١٣].

عاود الأمير محمد علي ابن الخديوي توفيق الذهاب مرة ثانية إلى محبوبته روسيا، حيث إنه ذهب في جولة من مصر إلى اليابان عبر خط السكة الحديد في سيبريا الذي تم بناؤه في عام ١٩٠٩[٦١٤]. وكتب ألكسندر ألكسندروفيتش سمير نوف المبعوث الدبلوماسي والقنصل العام الروسي في مصر إلى وزير الخارجية الروسي أ.ب.إيزفولسكي: «زارني مؤخراً، سمو الأمير محمد علي نجل الخديوي، الذي سافر إلى اليابان عبر سائر الأراضي الروسية و سيبيريا. وقد أعرب لي الأمير عن إمتنانه العميق لاستقباله الباهر في روسيا و الخدمات التي قدمت له أثناء رحلته. وطلب مني الأمير أن أبلغكم شكره وامتنانه العميق».

٦١٢ أنظر المرجع السابق، السطر ٩٣.
٦١٣ أنظر المرجع السابق، السطر ٢٤٦.
٦١٤ لمزيد من التفاصيل عن تلك الرحلة، أنظر: جينادى جورياتشكين «من دولة الأهرامات إلى دولة الشمس المشرقة» \\ فوستوتشنايا كوليكتسيا، خريف ٢٠١٠.

في الختام يقول الأمير محمد علي وهو يتذكر ذلك الاستقبال المهيب الذي وجده لدى الإمبراطور ألكسندر الثالث ، أثناء رحلته هو وشقيقه الخديوي الحالي عندما كانا صغارا : « إنه كان يشعر طوال تلك الرحلة الحالية ، كأنه ضيف شخصي لجلالة الإمبراطور كما تمنى أن يتم إبلاغ جلالته إمتنانه القلبي ومشاعره المفعمة بالإخلاص والتفاني[٦١٥].

أدت الحرب العالمية الأولى إلى توقف تبادل تلك الزيارات بين أفراد الأسرة المالكة في كلتا الدولتين . وقد ساهمت تلك الزيارات المشتركة في تعميق جذور العلاقات الثنائية بين البلدين . كما أبرزت وجود اهتمام مشترك ليس في مجال السياسة فحسب (حيث كان العدو المشترك بين البلدين هو الباب العالي) ، ولكن في مجال التبادل الحضاري الثقافي بين البلدين أيضاً .

٦١٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٢١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٥٤ ، السطر ٢٣ .